الاستحكامات العسكرية بمدينة عنابة

ــ حصن المعذبين أنموذجاــ

الأستاذة/ رزقي فهيمة

أستاذة مساعدة أ/ قسم التاريخ والآثار

جامعة قسنطينة02

الملخص:

إنّ التحصين الطبيعي الذي تتمتع به مدينة عنابة والمتمثل في البحر المتوسط من جهة الشمال، وكتلة جبال الايدوغ بالجهة الغربية والجنوبية لم يمنع الحكام عبر مختلف الفترات الاسلامية على تحصينها اصطناعيا تحسبا لأي هجوم أجنبي بحكم موقعها الاستراتيجي، ولعل ما لفت انتباهنا حصن المعذبين الذي يعود تشييده إلى التواجد العثماني بالمدينة، هذه المنشأة العسكرية وعلى الرغم من تعرضها للعوامل الطبيعية والبشرية إلا أنّها لا زالت تحافظ على هيكلها العام المتمثل أساسا في جدرانها الخارجية التي زادتها مواد بنائها قوة ومناعة، ومن خلال دراستنا الميدانية لهذا المعلم كمحاولة منا توصلنا إلى عدّة نتائج نلخصها في النقاط التالية:

- لعب دور كبير في تحصين المدينة لاشرافه على البحر من الجهة الشرقية
- جاء تخطيطه يشبه إلى حد كبير برج المنار بقلعة بني حماد
- تنوع مواد بنائه المتمثلة في الحجارة الضخمة والآجر والملاط.

مقدمة:

يعتبر بناء الأسوار والأبراج والقلاع والحصون من الوسائل التي تساعد على حفظ النفس والمال والعرض، ومن ثم أوجب فقهاء العمران استخدامها، وقد ارتبط تخطيطها بتطور وسائل الدفاع والهجوم وأساليبهما.

واختلفت التحصينات الإنشائية باختلاف مواقع المدن، فمنها ما يستدعي إنشاء قلعة على تل قريب لوقوع المدينة في واد منخفض كحلب، ومن المدن ما يستلزم ضرورة إقامة محارس ونواظر لمراقبة السواحل مثل مدن ساحل الشمال الإفريقي، ومنها مدن جاءت استحكاماتها الحربية عبارة عن خنادق وأسوار وفياصل مثل واسط وبغداد، والقاهرة والمهدية...

لقد احتفظت مدينة عنابة[1] خلال العهد الإسلامي بنماذج من العمارة العسكرية بشمال إفريقيا عبر العصور، حيث أشارت إليها المصادر التاريخية أمثال البكري (القرن 5هـ/11م)[2] والبلوي خلال القرن 8هـ/ 14م[3]، وحسن الوزان (القرن10هـ/16م)[4]، والمؤلف الإسباني مارمول كربخال (القرن10هـ/16م)[5]، وهي تعود إلى فترة حكم الحماديين والحفصيين، والعثمانيين وخلال هذه الفترة بالتحديد التي تعتبر مرحلة انتقالية من الحكم

---

1 **مدينة عنابة:**

تقع مدينة عنابة بأقصى الشمال الشرقي الجزائري، وتعتبر من أهم المدن الساحلية الجزائرية، تبعد عن الجزائر العاصمة بحوالي 650كلم، وعن قسنطينة ب156كلم، يحدها من الشمال البحر الأبيض المتوسط، ومن الغرب ولاية سكيكدة، وشرقا الطارف، ومن الجنوب ولاية قالمة.

2 أبو عبيد الله البكري، المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب، مأخوذ من كتاب المسالك والممالك (ت 487هـ)، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، ص 54،55.

3 أبو البقاء خالد بن عيسى البلوي، تاج المفرق في تحلية علماء المشرق، دت

4 حسن ابن محمد الوزان الفاسي، وصف إفريقيا، ج2، ط2، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، بيروت- لبنان، 1983، ص 6.

5 كربخال مارمول، إفريقيا، ج3، ترجمه عن الفرنسية محمد حجي وآخرون، مطبعة المعارف، الرباط، 1989، ص 7-9.

الحفصي إلى الحكم العثماني يقول مارمول كربخال: "... ولما عجز ملوك تونس عن الدفاع عن هذه المدينة استولى عليها الأتراك وعمروها وقاموا بتحصينها"[1]، حيث حظيت المدينة خلال هذه الفترة بزيارة الرحالة والتجار العرب والغرب، وحتى الأسرى والجواسيس والعسكريين الذين قدموا لنا وصفا لمعالمها وخاصة العسكرية منها، ويعد حصن المعذبين (المشنقة) من أبرز وأهم التحصينات الدفاعية بالمدينة خلال الفترة العثمانية.

وانطلاقا من هذا ارتأينا المشاركة بمداخلة علمية بعنوان: **الاستحكامات العسكرية بمدينة عنابة ــ حصن المعذبين أنموذجاــ** محاولين فيها التعرف على موقع هذا الحصن، والدوافع التي أدت إلى تشييده، والدور الذي لعبه في تحصين المدينة خلال الفترة العثمانية، بالإضافة إلى تخطيطه وعناصره المعمارية، ومواد بنائه.

الموقع:

يشغل حصن المعذبين الجهة الشرقية من مدينة عنابة، حيث يقع على الساحل ملاصقا لطبانة المقابر[2]، أسفل المستشفى العسكري، ويشرف على نهج الإخوة جعطوط من الناحية الغربية، بين جانبي الحصن هناك طريق التي تمر على حدود جامع أبي مروان إلى غاية قلعة الخروبة، وهو بذلك يحتل نفس موقع حصن سيدي عبد القادر(حصن البحر) [3] بمدينة بجاية الذي يعود تاريخه إلى

---

1 نفسه، ص 9.

2- طبانة المقابر: تقع بالقسم المتصل بالسور الجنوبي، وجاءت تربط بين طبانة القلعة وبرج المعدومين. أنظر: علي خلاصي، القلاع والحصون في الجزائر، المنشآت العسكرية الجزائرية في العصر الحديث، 2008، ص 166.

3- حصن سيدي عبد القادر: عبارة عن برج للمراقبة، شيّد خلال الفترة الحمادية، وأعيد بناءه من قبل الاسبان، يطل على الساحل من الجهة الجنوبية حيث بني على قمة هضبة صخرية، على الطريق المؤدي إلى القصبة. أنظر: - عبد الكريم عزوق، المعالم الأثرية الإسلامية ببجاية ونواحيها، دراسة أثرية، أطروحة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه دولة في الآثار الإسلامية، معهد الآثار، جامعة الجزائر، 2007، 2008، ص 163.

العهد الحمادي، وقد صنف هذا الحصن كمعلم أثري بتاريخ 20-11-1978 بالجريدة الرسمية تحت رقم52 في 26-12-1978م[1].

أصل التسمية:

يعرف هذا الحصن بحصن المعذبين أو برج المعدومين، وظل خلال الحرب العالمية الثانية (1939-1945م) يحمل تسمية المشنقة، وهو عبارة عن سجن خصص للقراصنة الأعداء، حيث خصص للمحكوم عليهم بالإعدام[2]، في حين يطلق عليه النقيب **Delamare** حصن القصرين أو حصن اللقلق[3]، وعلى ما يبدو أنّ هذه التسمية الأخيرة أطلقت على برج البلارج الذي بناه الجنويين حوالي سنة 1540م، وسمي بهذا الاسم لارتفاعه أو لبناء هذا الطائر عشه عليه[4].

المؤسس وتاريخ التأسيس:

يرى **Delamare** أنّ حصن القصرين الذي لم يبق منه سوى الجدران الخارجية شيّد قبل القرن السادس عشر للميلاد، حيث هدم منذ أكثر من 50سنة[5]، ولكن اعتمادا على النقيشة التذكارية التي كانت تعلو مدخل الحصن من الناحية الغربية المطلة على نهج الإخوة جعطوط كما أشرنا سابقا،

1- الوكالة الوطنية للآثار وحماية المعالم والنصب التاريخية، نصوص ونظم تشريعية في علم الآثار وحماية المتاحف والأماكن والآثار التاريخية، مطبعة الاتحاد العربي للحديد والصلب، الجزائر، 1992، ص 123.

2- Maitrot, Bône militaire, 44 siècles de luttes du, imp. Centrale Mariani, Bône, 1934, p. 482.
- H'sen Derdour, Annaba 25 siècles de vie quotidienne et de luttes, t2, SNED, Alger, 1982.p. 70.

3 Delamare, exploration scientifique de l'Algérie pendant les années 1840-1845, Ernest Leroux, Paris, 1912, p. 181,182.

4- علي خلاصي، المرجع السابق، ص 165.

5- Delamare, op.cit, p. 181,182.

يتبيّن لنا أنّ تاريخ بناء هذه المنشأة العسكرية كان سنة 983هـ/1575م على يد آغا الأوقاف أبو الحسن[1]، ويمثل هذا التاريخ فترة حكم الباي جعفر (982-997هـ/1574-1588)[2]، أما عن بنائه فهو من تخطيط المهندس محمد بن عرعار، وقد أزيلت هذه اللوحة الرخامية التأسيسية و لم تبق إلاّ آثارها واضحة للعيان، **وفيما يلي نص النقيشة:**

بسم الله الرحمن الرحيم

اللهم صل وسلم على سيّدنا محمد وعلى آله وأصحابه، توجد هنا مدينة بونة للسلم وللسرور، وعلى بابها يسطع نورها الباهر، وعلى جبينها تطالعك حروفها بأنّها مدينة أصيلة وحضارية، تقول للقادمين إليها (أدخلوها بسلام آمنين).

النصر لكم يا قراصنتنا الأبطال، أسياد البحر الأبيض المتوسط

من يدخل من أبواب (بونة) كتب له النصر والسعادة، بني حصن (القصرين) في سنة 983 (هـ) من طرف آغا الأوقاف أبو الحسن نصر الله

هذا الباب وهذا القصر من تصميم وتنفيذ المهندس محمد بن عرعار[3]

الدراسة الأثرية:

لم يبق من حصن المعذبين سوى جدرانه الخارجية (أنظر الصورة رقم: 01)، ويمثل في الأصل أحد جناحي المنشأة العسكرية المعروفة بالقصرين، حيث منذ نهاية أعمال البناء خصص أحد جوانب هذا الحصن (القصرين) لاستقبال البحارة وغنائمهم، أما الجانب الآخر الذي نشاهده اليوم فهو عبارة عن سجن خصص للقراصنة الأعداء، مهيأ بباب تحت الساباط

1- H'sen Derdour , op.cit, p.71

2 – محمد الصالح ابن العنتري، فريدة منسية في حال دخول الترك بلد قسنطينة واستيلائهم على أوطانها، مراجعة وتقديم وتعليق يحي بوعزيز، دار هومة، الجزائر، 2007، ص 43.

3-H'sen Derdour, op.cit, p. 71

وبسلم صاعد يؤدي مباشرة إلى المدينة، وبسقف هذا الساباط مازالت آثار الإعدام بواسطة حلقات (المشنقة) وبقايا فخ مميت خصص من دون شك للمحكوم عليهم بالإعدام[1].

هذا الحصن جد واسع، مهيأ ببابين رائعين، أحدهما وضع مقابلا لمسجد سيدي الطاهر المهدي (نهج الفدا)، والآخر بحري على موقع القصبة أين توجد لوحة تذكارية تؤكد وإلى غاية يومنا هذا تاريخ بناء القصرين واسم المنشأ (المعماري) [2].

نجد بالواجهة الأمامية الغربية مدخل معقود بمداميك حجرية، يعلوه قبُو من الآجر محمول على كوابيل حجرية (أنظر الصورة رقم: 02)، أما الواجهة الشمالية فقد فتح بها مدخل معقود بعقد محدب من الآجر، ويتم الوصول إليه عن طريق سلم صاعد، وزودت الواجهة الجنوبية هي الأخرى بمدخل معقود بعقد نصف دائري، بالإضافة إلى فتحات مستطيلة يبدوا أنّها مزاغل فتحت بجميع واجهات الحصن، تعلو أركانه وحوافه شرافات على هيئة أبراج صغيرة، أما عن مادة بنائه فتمثلت أساسا في الحجارة المنتظمة والآجر والدبش والملاط، ولم يحافظ من الداخل على شكله الأصلي حيث استحدث تماما بعد أن أصبح مأوى لإحدى العائلات بمدينة عنابة، فيما يظهر في بعض أجزائه تبليط الأرضية بالرخام، والبلاطات الآجورية السداسية الشكل.

وعلى ما يبدوا أنّ حصن المعذبين جاء يشبه إلى حد كبير برج قصر المنار[3] بقلعة بني حماد، هذا الأخير الذي احتوى على قاعتين فوق بعضهما البعض، حيث يرجح أنّ القاعة السفلى ذات الشكل المربع استخدمت كسجن،

1- H’sen Derdour, op.cit, p.70
2- Ibid.
3- L. De Beylie, La Kalaa des Beni-Hammad, Ernest Leroux, Paris, 1909, p. 41-46.

في حين خصصت الحجرة العلوية كمكان لوضع الذخيرة والأسلحة، وهذا ما نلاحظه في برج المعدومين بمدينة عنابة الذي احتوى على أربعة غرف بالطابق الأرضي شكلها قريب من المربع حسب الساكن، ونظرا لصعوبة والخطر لم يسمح لنا بالدخول لأخذ قياسات الغرف، أما الطابق العلوي الذي لم تبق منه إلاّ الجدران الخارجية ربما كانت سكن للجند.

التغييرات والتجديدات:

تعرض هذا المعلم العسكري إلى التجديد خلال النصف الثاني من القرن السابع عشر للميلاد، وذلك سنة 1083هـ/1672م على يد ناظر الحبس، ونستدل بذلك من النقيشة التي أشار إليها قائد البحرية **Maitrot** التي كانت تعلو باب حصن المعذبين المقابلة للقصبة (أو باب المقابر التي تعرضت للتجديد خلال القرن التاسع عشر للميلاد)، وقد جاءت النقيشة عبارة عن لوحة رخامية محفورة حفر بارز كتبت بخط مشرقي، قياساتها كمايلي: الطول 1.03متر، الارتفاع 0.60متر، ارتفاع الحروف 0.07متر[1].

نص النقيشة:

بسم الله الرحمن الرحيم
اللهم صلي وسلم على سيدنا محمد
وعلى آله كما لا نهاية
لكمالك وعدد كماله
قد علا بونة هنا وسرور
وعلى بابها من الحسن نور كتب اليمين
في جبينها سطرا بلد طيبة ورب غفور

1 -Maitrot, op.cit, p. 494, 495.- Gustave Mercier, Corpus des inscriptions arabes et turques de l'Algérie, département de Constantine, Ernest Leroux, Paris, 1902, p.62.

بورك المصر على مر السنين بعد الدين

ونصر المؤمنين كتب السعد على أبوابها

ادخلوها بسلام آمنين جدد سنة 1083

على يد ناظر الحبس والي آغه صنعة المعلم محمد بن عرعار[1]

أما حاليا فلم يتبق من هذه المنشأة الدفاعية سوى جدرانها الخارجية وحجرات بالطابق الأرضي.

خاتمة:

إنّ الموقع الذي يحتله حصن المعذبين بالجهة الشرقية من مدينة عنابة، بالإضافة إلى مواد بنائه الصلدة المقاومة للعوامل الطبيعية والبشرية جعلت منه أهم التحصينات العسكرية بالمدينة خلال الفترة العثمانية، فقد لعبت العمارة الدفاعية دورا كبيرا من الناحية السياسية والعسكرية بداية من العصور القديمة إلى غاية الفترة العثمانية، حيث شهدت تشييد العديد من المنشآت الدفاعية تحصينا لها من ضربات وأطماع الدول الصليبية التي سلطت أنظارها على المدن الساحلية للشمال الإفريقي، ونظرا لتعرض المدينة خلال العصر العثماني للعديد من الهجمات الأجنبية وحتى الداخلية التي كانت تشنها القبائل العربية المقيمة خارج أسوار المدينة لذا كان من الضروري حمايتها وتحصينها، وتمثلت في القلعة الحفصية التي أعيد بناءها بالإضافة إلى حصن الجنويين، والعديد من الثكنات نذكر منها طبانة بلعيد، طبانة المقابر، طبانة الخيل ...الخ، كما تجدر بنا الإشارة إلى جامع أبي مروان الشريف الذي شيّد بالناحية الجنوبية من المدينة سنة 425هـ/ 1033م كمنشأة دينية وعسكرية لصد الهجمات الآتية شمالا جهة البحر الأبيض المتوسط حيث ظل محافظا على وظيفته العسكرية أثناء التواجد العثماني بعنابة.

1- Gustave Mercier, op.cit, p.62. - Maitrot, op.cit, p.495.

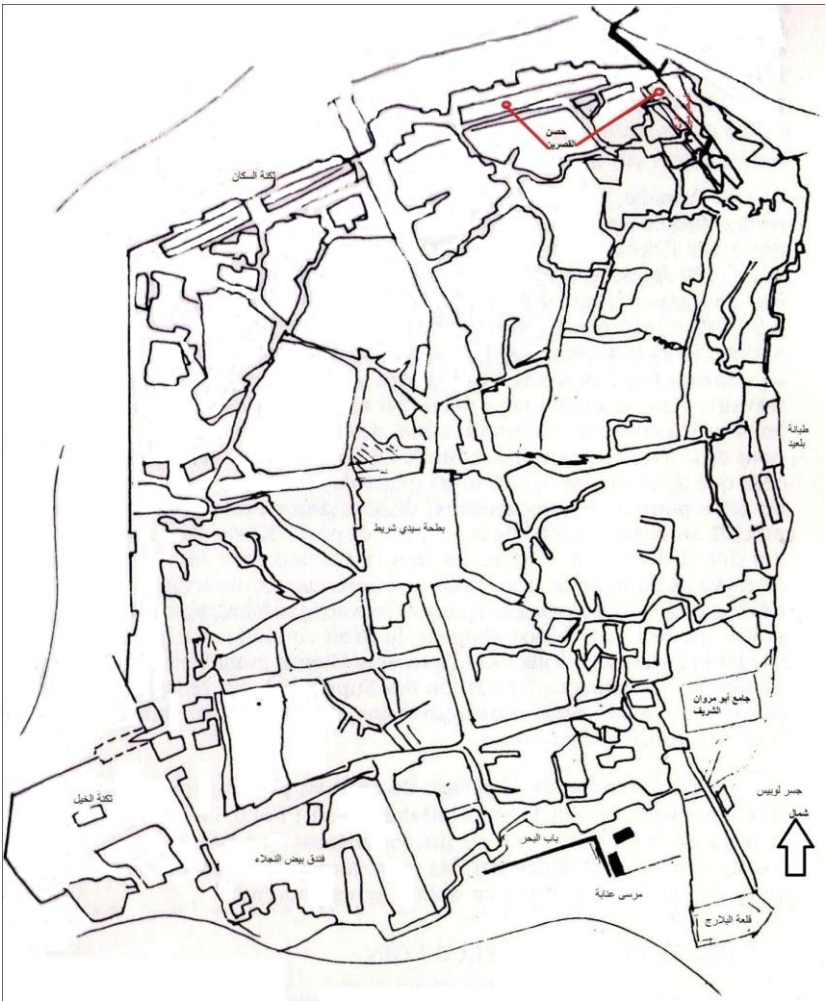

خريطة رقم 01: الاستحكامات العسكرية بمدينة عنابة خلال الفترة العثمانية (عن Derdourبتصرف)

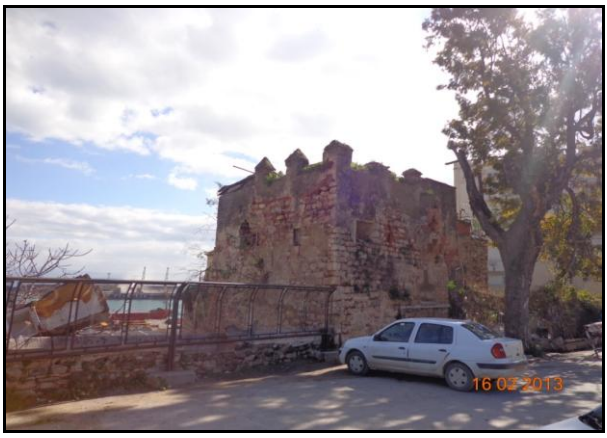

الصورة رقم (01): حصن المعذبين

الصورة رقم (02): الواجهة الغربية الرئيسية لحصن المعذبين

الصورة رقم (03): أثر تموضع النقيشة الرخامية أعلى المدخل الغربي لحصن المعذبين

الصورة رقم (04): الواجهة الشمالية لحصن المعذبين

الصورة رقم (05): الواجهة الجنوبية لحصن المعذبين

قائمة المصادر والمراجع باللغة العربية:

1ــ ابن العنتري (محمد الصالح)، فريدة منسية في حال دخول الترك بلد قسنطينة واستيلائهم على أوطانها، مراجعة وتقديم وتعليق يحي بوعزيز، دار هومة، الجزائر، 2007.

2ــ البكري (أبو عبيد الله)، المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب، مأخوذ من كتاب المسالك والممالك (ت 487هـــ)، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، دت.

3ــ البلوي (أبو البقاء خالد بن عيسى)، تاج المفرق في تحلية علماء المشرق، دت.

4ــ الزياني (الحسن ابن محمد الوزان الفاسي)، وصف إفريقيا، ج2، ط2، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، بيروت- لبنان، 1983.

5- مارمول (كربخال)، إفريقيا، ترجمه عن الفرنسية محمد حجي وآخرون، ج3، مطبعة المعارف، الرباط، 1989.

6ــ عزوق (عبد الكريم)، المعالم الأثرية الإسلامية ببجاية ونواحيها، دراسة أثرية، أطروحة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه دولة في الآثار الإسلامية، معهد الآثار، جامعة الجزائر، 2007، 2008.

7ــ خلاصي (علي)، القلاع والحصون في الجزائر، المنشآت العسكرية الجزائرية في العصر الحديث، 2008.

8ــ الوكالة الوطنية للآثار وحماية المعالم والنصب التاريخية، نصوص ونظم تشريعية في علم الآثار وحماية المتاحف والأماكن والآثار التاريخية، مطبعة الاتحاد العربي للحديد والصلب، الجزائر، 1992.

قائمة المصادر والمراجع الأجنبية:

1- De Beylié (L), La Kalaa des Beni-Hammad, Ernest Leroux, Paris, 1909 2- Derdour (H'sen), Annaba 25 siècles de vie quotidienne et de luttes, t_2, SNED, Alger, 1982.

3- Delamare, exploration scientifique de l'Algérie pendant les années 1840-1845, Ernest Leroux, Paris, 1912.

4- Capitaine Maitrot, Bône militaire, 44 siècles de luttes du, imp. Centrale Mariani, Bône, 1934

5- Mercier (Gustave), Corpus des inscriptions arabes et turques de l'Algérie, département de Constantine, Ernest Leroux, Paris, 1902.